

الأنساق الثقافية في الحكاية الشعبية بمنطقة قالمة – حكاية ودعة تلافة خاوتها السبعة أنموذجا-

Les modèles culturels dans le conte populaire de la région de Guelma –
L'exemple du conte de Wadha et de ses sept frères –

ط.د. سميرة قداش¹، د. شوقي زقادة²

¹ جامعة قالمة، (الجزائر)، Kaddech.Soumaya@univ-guelma.dz

² جامعة قالمة، (الجزائر)، zeggada.cheouki@univ-guelma.dz

مخبر الدراسات اللغوية والأدبية.

تاريخ النشر: 2025/10/01

تاريخ المراجعة: 2025/09/08

تاريخ الإيداع: 2025/06/11

ملخص:

تمثل الحكاية الشعبية إحدى أهم أشكال التعبير الشفهي في الأدب الشعبي، إذ تنطوي على أنساق ثقافية مضمرة تعكس بنية المجتمع وقيمه ورؤيته للعالم. ومن خلال تحليل مضامين الحكاية وبنيتها الرمزية، يمكن الكشف عن تمثيلات الجماعة الشعبية لقضايا الجندر، والسلطة، والهوية، وغيرها من البنى الثقافية الراسخة. يُمكننا النقد الثقافي، كمنهج مقارب، من تفكيك هذه الأنساق واستجلاء وظائفها في ترسيخ الوعي الجمعي وتوجيهه داخل السياق الثقافي المحلي.

الكلمات المفتاحية: الحكاية الشعبية، النقد الثقافي، الأنساق الثقافية، الوعي الجمعي.

Abstract:

Folktales represent one of the most vital forms of oral expression in folk literature, as they embody implicit cultural patterns that reflect the structure, values, and worldview of the community. Through the analysis of narrative content and symbolic structure, it becomes possible to uncover popular representations of issues such as gender, authority, and identity. Cultural criticism, as an analytical approach, enables us to deconstruct these patterns and explore their roles in shaping and reinforcing collective consciousness within the local cultural context.

Key words: The Folktale, Cultural criticism, Cultural patterns, Collective consciousness.

* المؤلف المراسل.

تقديم:

تُعد الحكاية الشعبية شكلاً من أشكال التعبير الثقافي الشفوي الذي يعكس الرؤية الجماعية للعالم، ويخزن القيم والمعتقدات والتصورات التي تنتجها الجماعة في سياقها التاريخي والاجتماعي. وبوصفها نصاً فولكلورياً، فإن الحكاية الشعبية لا تُقدّم فقط بوصفها سرداً تخيلياً ممتعاً، بل بوصفها حاملاً لنسق ثقافي معقد، يُسهم في إعادة إنتاج البنية الرمزية للمجتمع، ويكتف المعيش اليومي في صور رمزية مشحونة بالدلالة. وفي هذا الإطار، تكتسي الحكاية الشعبية في منطقة قالمة (شرق الجزائر) أهمية خاصة، لما تزخر به من مضامين سردية تُجسّد أنساقاً ثقافية متجذّرة في البيئة المحلية، منها ما هو ظاهر ومباشر، ومنها ما هو كامن ومضمر يتطلب آليات تحليلية للكشف عنه. وتمثل دراسة هذه الأنساق مدخلاً لفهم البنية الثقافية للمجتمع القالمي، بما تحمله من تصورات حول الهوية، والسلطة، والجنس، والعلاقات الاجتماعية.

انطلاقاً من هذا المنظور، تُطرح الإشكالية الآتية :

ما طبيعة الأنساق الثقافية المتجلية في الحكاية الشعبية بمنطقة قالمة، وكيف تُسهم هذه الأنساق في تشكيل الوعي الجمعي المحلي؟

وتتفرع عن هذه الإشكالية جملة من الأسئلة الفرعية، من بينها .

كيف يتمثل النسق القيمي (مثل الخير والشر، الشرف، ...) في هذه الحكاية؟

إلى أي مدى تعكس الحكايات الشعبية علاقات القوة والنوع الاجتماعي (الجنس) في بنية المجتمع

القالمي؟

أولاً: النقد الثقافي

شهدت الدراسات الأدبية النقدية تحولاً لافتاً مع بداية التحليل الثقافي للنصوص، حيث لم يعد ينظر إلى الأدب كمنتج جمالي فقط، بل كخطاب يحمل رؤى المجتمع ويعكس أنساقه الفكرية والقيمية، وفي هذا الصدد برز اتجاه جديد يتماشى وهذه الرؤى يعرف تحت مسمى "النقد الثقافي".

يعرّف عبد الله الغدامي النقد الثقافي على أنه « فرع من فروع النقد النصوي العام، ومن ثم فهو أحد علوم اللغة وحقول الألسنة معني بنقد الأنساق المضمرّة التي ينطوي عليها الخطاب الثقافي بكل تجلياته و أنماطه وصيغه، ما هو رسمي وغير مؤسّساتي (...) مما يجعله ممارسة نقدية متطورة ودقيقة و صارمة »¹.

يهدف هذا النوع من النقد إلى كشف البنى الفكرية الرمزية الكامنة خلف النصوص كالأيديولوجيات والتمثيلات الاجتماعية، مما يجعله ممارسة نقدية دقيقة و متطورة تتطلب أدواتاً منهجية صارمة، ورؤى تحليلية عميقة تتجاوز القراءة السطحية للنص .

في حين يرى آرثر آيزنبرجر (Arthur Isaburger) أنه « عبارة عن نشاط وليس مجالاً معرفياً خاصاً بذاته، أي أن النقاد الثقافيين يطبقون المفاهيم للنظريات المتضمنة على الفنون الراقية والثقافية الشعبية والحياة اليومية وحشد من الموضوعات، فهو نقد متداخل مترابط متجاوز متعدد وهذا راجع على تعدد واختلاف مجالات نقاد الثقافة »²

يوضح هذا القول النقد الثقافي على أنه ليس علماً مستقلاً بذاته أو مجالاً معرفياً مغلقاً، بل هو نشاط فكري وممارسة تطبيقية، فالنقاد الثقافييين يستخدمون مفاهيم من نظريات ومباحث علمية مختلفة

(كالفلسفة، علم الاجتماع، التحليل النفسي، دراسات الجندر...) ويطبقونها على مجالات متنوعة، مثل الفنون، الثقافة الشعبية، العادات اليومية و... الخ وبسبب هذا التنوع في المواضيع والمناهج، فإن النقد الثقافي يعدّ متعددًا، متداخلًا ومتجاوزًا للحدود التقليدية، وهذا ناتج عن اختلاف الخلفيات والتخصصات الفكرية لنقادها، فالنقد الثقافي واسع وسع الثقافة التي تعدّ بدورها كما اصطلاح عليها ادوارد تايلور: «ذلك الكل المركب الذي يشتمل المعرفة والعقائد، والفن والأخلاق والقانون والعادات وغيرها من المقررات والعادات التي يكتسبها الانسان بوصفه عضوا في جماعة»³.

يعدّ النقد الثقافي نشاط تحليلي يتبع النقد النصوي بهدف الكشف عن الأنساق المضمرة في الخطابات بمختلف أنواعها. والمؤكد أنه لا يعدّ علما مستقلا بذاته، بل يوظف مفاهيم من مجالات معرفية متعددة، ويطبقها على موضوعات متنوعة، مما يجعله نقدا متداخلا، ومرنا، ومتطورا.

ثانيا: النسق الثقافي :

يُعدّ مصطلح النسق من المفاهيم التي عرفت انتشارًا واسعًا في الدراسات النقدية المعاصرة، حيث اكتسب دلالات متعددة ومتباينة على المستوى الاصطلاحي. فقد شاعت كلمة "النسق" في الخطاب العام والخاص، إلى درجة أدت أحيانًا إلى غموض معناها أو تشويبه. وفي أبسط تعريفاتها، كما في المعجم الوسيط، يُفهم النسق على أنه ما كان منتظمًا وفق نظام واحد، وقد يُستخدم أيضًا كمرادف لمصطلحي "البنية" أو "النظام" في سياق الدراسات اللسانية البنيوية، كما عند دي سوسير⁴.

أما من الناحية الاصطلاحية النقدية، فقد قدّم عبد الله الغدامي تعريفًا أكثر عمقًا ودقة، إذ اعتبر النسق نوعًا من "علم العلل" على غرار ما هو معروف في مصطلح الحديث، أي العلم الذي يبحث في العيوب الكامنة في الخطاب، سواء في مضمونه (المتن) أو في بنيته المرجعية (السند)⁵. وبهذا، يصبح النسق ممارسة نقدية صارمة تتطلب منهجًا قادرًا على تشريح النصوص، واستخراج ما تضمّره من أنساق خفية أو ما تصرّح به من أنساق ظاهرة. بهذا المعنى، يغدو النسق أداة تحليلية تهدف إلى كشف البنى العميقة التي تتحكم في إنتاج المعنى داخل النصوص الثقافية.

كما يرى عبد الله الغدامي أن النسق عبارة عن وظيفة تعمل على التأثير على جمهور المتلقين بطريقة خفية وفعالة، بحيث لا تتم هذه المهمة إلا بوجود نسقين على الأقل⁶، إذ يكون مبطنًا خلف شعريات النص الأدبي بوعي من المبدع أو من غير وعي.

ولكنه في كل الأحوال يهدف إلى غاية ما، وهذا ما جاء به محمد مفتاح، إذ يرى أن النسق هو «ما كان مؤلفًا من جملة من عناصر أجزء ترابط فيما بينها وتتعلق لتكون تنظيمًا هادفًا إلى غاية، وهذا التحديد يؤدي إلى نتائج عديدة»⁷.

أما النسق الثقافي فيمكن تعريفه على أنه مجموعة من العناصر المتفاعلة والمترابطة التي تتعلق بالمعرفة، والمعتقدات، والأخلاق، والعادات، والتقاليد التي يكتسبها الإنسان داخل مجتمع معين. ومن خلال هذا الفهم، يتبين أن مفهوم النسق الثقافي هو تركيب يجمع بين مفهومي "النسق" و"الثقافة"، بحيث يشير إلى النظام الخفي أو الظاهر الذي يُشكل البنية الذهنية والسلوكية للمجتمع.

وقد عرّف عبد الله الغدامي النسق الثقافي بوصفه "أنساقًا تاريخية أزلية وراسخة، تتمتع بالغلبة الدائمة، وتُستدل عليها من خلال اندفاع الجمهور نحو استهلاك منتج ثقافي يحتوي ضمانيًا هذه الأنساق". ويرى أن هذه الأنساق قد تظهر في الأغاني، والأزياء، والحكايات، والأمثال، والأشعار، بل حتى في الإشاعات والنكت، التي تُشكّل بمجملها أدوات بلاغية جمالية تتأسس على المجاز، وتنطوي تحتها أنساق ثقافية تلقاها المتلقي لتوافقها السري مع نسق قديم متجذر فنيًا⁸.

أما أحمد يوسف عبد الفتاح، فينظر إلى الأنساق الثقافية باعتبارها "قوانين وتشريعات أرضية من صنع الإنسان، يهدف من خلالها إلى تنظيم حياته وضبط سلوكه". ويضيف أنها تعبير رمزي عن تصوّر الإنسان القديم لما ينبغي أن تكون عليه الحياة، وهي – كغيرها من العناصر الثقافية – قابلة للتخيل وإعادة التصور⁹.

من جانبه، يرى عبد الله إبراهيم أن "الثقافة هي مؤلف مضمّر ذو طبيعة نسقية، تفرض نفسها على الكاتب من خلال مفاهيمها الكبرى، التي تتسلل إليه كالمخدر البطيء، فتصوغ خطابه بما يتوافق مع مضامينها الإيديولوجية". ويؤكد أننا إزاء تركيب بين تكوين شخصي للمؤلف، وتكوين ثقافي جمعي، يكون فيه الثاني مسؤولاً بدرجة كبيرة عن تشكيل الأول وإعادة إنتاجه¹⁰.

أما كلود ليفي شتراوس (Claude Lévi-Strauss)، فقد نقل مصطلح "النسق" إلى الحقل الثقافي، معتبراً أن الأبنية الاجتماعية والظواهر الثقافية المختلفة محكومة ببني وقوانين خفية، كامنة في اللاوعي الإنساني. وهو ما يستدعي – بحسبه – بحثاً في البنيات الثابتة للعقل، بوصفها منظومات رمزية لا تُدرك بسهولة ولكنها تؤثر بعمق في تشكيل الواقع الثقافي¹¹.

ثالثاً: عرض الحكاية:

ودعة تلافة خاوتها السبعة

« هاذي ودعة طفلة وحدة في سبعة خاوتها رجال ، يحبوها ياسر ، كل ما يروح واحد للصيد في الغابة يديها معاه، نساء خاوتها غاروا منها ، وحد النهار حطولها العضام تا الحنوشة في وسط الطمينة وقالولها كولي وابلي طول ما تمضغيش، كلات الطمينة أديكا وتفلقت الحنوشة في كرشها ، وكل ما تكبر الحنوشة تكبر كرشها ، قالوا النساء لرجالهم شوفوا أختكم لي تحبوها عاملة العار ونعتولهم كرشها، هزوها خاوتها ودوها لبلاصة بعيدة، حفرولها حفرة و حطوها فيها، وحطولها في حجرها قصعة تاع قمح ودفنوها حية رجعوا

أيا جاء راجل راح يبني في البقعة أديكا ، كي يدق الساس في الارض تنوض تعيط : "هز ايدك آني مومنة ! "كل ما يضرب الساس في الارض تنوض تعيط : "هز ايدك آني مومنة !" سمعها الراجل قالها: نتي أنس ولى جن؟ قاتلو إنس ، جاء يحل علاها لقاها و في حجرها القصعة تع القمح ، خرجها وحكاتلو حكايتها ، زوز باها وراح للدبار حكاتلو حكايتها ، قالو الدبار: علقها في سجرة من رجلها واصليها على راسها وحط تحتها قصعة تع ماء ولحنش لي يطيح اضربو على راسو اقتلو ، أيا دارلها كيما قالو الدبار والحنش لي يهبط يقتلو ويعيلو لهيه حتان قعد اللخر حنش بو سبعة روس ضرب ضرب بسيف ما خرج وكي هبط قتلو بسيف ما مات وكي قتلو عيلو لهيه ، وهبطها هي لمت الحنوشة أديكا ويبستهم وخبتهم ، قالها راجلها نديك لخاوتك، راحت هي وراجلها ودات معاه ولدها يفركتو على خاتها، راحت لدوارهم لقتهم بدلوا بلاصتهم، راحو لدوار واحد أواخر سقساو عليهم قالولهم راهم في الدوار هاذاك (دوار في نحواحي الدوار هاذاك) راحوا لقاوهم ، هي عرفتهم وهوما ما عرفوهاش ، تفاهمت

مع ولدها قتلوا كي تشوف خوالك تلمو كل قولي : " أيما احكيلنا حكايتك " أيا ضيفوهم ، تعشاو كملوا تلماو يسهرو ، قالها ولدها: " أيما احكي لينا حكايتك " قتلوا هي : " ايبيه يا ولدي ، أنا حكايتي حكاية " قالولها : " وش هي حكايتك؟ " بدات تقصص لهم في حكايتها عرفوها ، قالولها : " مالا نتيا أختنا وهذا كل صرى فيك ؟! " داروا على نساها ، لي طلق مرتو طلقها ، ولي سحتها سحتها ، ولي قتلها قتلها ¹²

رابعاً: الأنساق الثقافية:

حملت هذه الحكاية العديد من الأنساق المضمرة والتي حملت بالتالي العديد من المظاهر من بينها :

1 - نسق الغيرة :

قام هذا النسق بتغيير مسار الحكاية من مسار مستقر " إلى آخر مضطرب " لخلق أحداث وتشويق للحكاية ، وكان هذا انطلاقاً من هذا النسق المثير ، إذ أن الغيرة هي تلك الحالة والشعور السلبي الذي يجد فيه الانسان نفسه عندما يكون هناك تهديد حقيقي أو متخيل لأن يفقد شريكه لمصلحة شخص آخر¹³ . وهذا فعلاً ما ظهر في نفوس النسوة؛ إذ أن كلّ واحدة منهن أحسّت بميل زوجها بل فعل تفضيل زوجها لأخته عليها ممّا أثار في نفسها الغيض مما أثار رد فعل حقيقي ضد الطرف الآخر ومحاولة إزاحته¹⁴ . وكان ذلك من خلال اتفاقهن أولاً على الشعور السلبي نفسه والمكر ثانياً لمحاولة التخلص منها وهذا يؤدي إلى ظهور نسق آخر.

2- نسق أخلاقي :

إنّ محاولة النساء تدبير المكيدة لأخت أزواجهن وذلك بجعل بيض الثعبان داخل الأكل حتى تبتلعه وتعيش الثعابين بعدها داخل بطنها ليظهر للعلن أنها حامل مما هو مخالف للأعراف والدين بالتالي التخلص منها وهذا من سوء الخلق والدناءة ، والغيرة التي تعمي القلوب لتصير حقدا يؤدي إلى التهلكة، كاتهامها بالحمل وهي عزباء مما سيخلف العار لأخوتها الرجال، وهذا يضرب في رجولتهم وسمعتهم مما سيؤدي إلى حتمية التخلص من هذا العار بأي طريقة دون الرجوع في الأمر حيث أنه لا مجال للعاطفة في مجتمع محافظ ملتزم، وقد تمّ ما أمكّن له، ولكن يظهر في غمرة الأحداث " الرجل المخلص " والذي يعكس النبالة والشهامة إذ أنه خلصها من عذابها وتزوجها وجعلها سيدة بيته، وساعدها على ردّ اعتبارها من خلال البحث عن إخوتها وكشف الحقيقة لهم.

3 - نسق ديني :

1-3 - وأد البنات :

كان وأد البنات من الممارسات القاسية التي عرفت بها بعض المجتمعات العربية قبل الإسلام، إذ كان يُنظر إلى ولادة الأنثى باعتبارها عاراً أو عبئاً اقتصادياً واجتماعياً. وقد أدى هذا التصور الخاطئ إلى قتل الطفلات ودفنهن أحياء، درءاً لما كان يُتوهم من الفقر أو العار. ومع أن هذه الظاهرة لم تكن شائعة في كل القبائل، إلا أنها كانت دالة على النظرة الدونية للمرأة ومكانتها في تلك المجتمعات. جاء الإسلام ليضع حداً قاطعاً لهذه الممارسة، مستنكراً إياها بأشدّ العبارات، كما في قوله: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُدَةُ سُئِلَتْ ^(٨) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ^(٩)﴾ [التكوير ٨-٩] ، وقال أيضاً : " ﴿يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل ٥٩]. معلناً بذلك كرامة الإنسان وحقوق المرأة، ومكرساً تحولاً جذرياً في القيم الاجتماعية.

ورغم اندثار ظاهرة وأد البنات كفعل مادي مباشر، إلا أن أشكالا رمزية من الوأد لا تزال قائمة في بعض المجتمعات العربية المعاصرة، فبعض الجماعات الشعبية طبقها بطريقة مغايرة وحسب، فالأنثى لا تمثل إلا عارا بالنسبة لمنغلقى الفكر بالرغم من اسلامهم وتحريم الشرع لهذه العادة والدليل على أن الشخصوس السردية مسلمة هو قول الفتاة للرجل عند دكّه الأرض " هز أيدك أني مومنة" ¹⁵.

2-3 - الهتان :

" يقول الله تعالى في محكم التنزيل: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [النساء ١١٢]، وقال أيضا: ﴿وَيَكْفُرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ [النساء ١٥٦]. ومن الأنساق الدينية التي ظهرت في الحكاية أيضا " الهتان" وهو ظلم من الإنسان ليطربه إنسانا آخر، وهو ما لا يرضاه الله لخلقه إلا المريضة قلوبهم فاتهم "ودعة" بما لم تفعله من الفاحشة جور وبهتان في حقها، وهي بريئة وهذا من أشد ما قد يعاقب الله عليه أشدّ العذاب، لأنها هي الأخرى جريمة تتعدى حدود الله وحرماته، وهي رمي المحصنات، التي قال فيها الله عزّ وجل: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (٤) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٤﴾ [النور ٥-٤].

إن بعد اتهامها كذبا في عرضها قاموا بفضحها، إن هذا من التشيع (تشيع الأخبار الكاذبة)، حتى تسوء سمعتها أمام اخوتها أولا والعامّة ثانيا، وقد قال الله تعالى في هذا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾ (٥٧) وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغْيٍ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾ [الأحزاب ٥٧-٥٨].

3-3 - سوء الظن :

يُشكّل النسق الثقافي الديني منظومة من القيم والمعتقدات التي تُحدد نظرة الأفراد إلى العالم وتوجّه سلوكهم اليومي، وغالبًا ما يتداخل هذا النسق مع الأعراف الاجتماعية، مما يؤدي إلى تبرير مواقف وممارسات قد تتعارض مع روح الدين نفسه. من بين هذه الممارسات، يبرز سوء الظن كقيمة سلبية يُدينها الدين، لكنها تُمارس في المجتمعات المحافظة بحكم العادة أو الخوف من الفضيحة. ففي كثير من الحالات، يُسوِّغ سوء الظن باسم "الاحتياط" أو "الغيرة"، ما يكشف عن فهم انتقائي للنصوص الدينية يُعزّز النزعة الرقابية تجاه الآخر، خصوصًا تجاه المرأة أو الفئات الضعيفة، وهو ما يُكرّس انعدام الثقة داخل البنية الاجتماعية.

وتكمن خطورة هذا التداخل في أن سوء الظن عندما يُصبح مُقنّعا بالشرعية الدينية أو الاجتماعية، يتحول إلى آلية للرقابة والقمع، بدل أن يكون موضوعا للمساءلة الأخلاقية. فبدلًا من أن يُنظر إلى الظن السيئ كخلل في النية وسوء في التقدير – كما تحت النصوص الدينية الصريحة على اجتنابه – يُعاد تأويله في ضوء السياق الاجتماعي ليصبح سلوكًا مشروعًا أو حتى مطلوبًا. وهنا تتجلى إشكالية النسق الثقافي الديني، حين يتحول من حامل لقيم الرحمة والعدل، إلى وسيلة لتبرير الإقصاء والشك، فيُفرغ الدين من مقاصده الإنسانية ويُحصّر في مظاهر سلوكية شكلية، وتمثل هذا النسق في سوء ظن الإخوة بأخاتهم ولاسيما اتفاق نساء الاخوة على أمر واحد وعملوا على اقناع الرجال وإيقاعهم في شرك الظن الفاسد للتخلص من أختهم "ودعة"، وفي هذا قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعْ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [يونس ٣٦]

4-3 - المكر:

يُعد المكر من الأنساق الثقافية المتجذرة في العديد من المجتمعات، وهو نسق يتشكّل من خلال التجربة التاريخية والظروف الاجتماعية التي تدفع الأفراد إلى تبني أساليب الالتفاف والدهاء كوسيلة للبقاء أو التقدم. في السياقات التي يغيب فيها القانون العادل أو تسود فيها ثقافة الشك والخوف، يصبح المكر مهارة يُثَمَّنُها المجتمع، لا باعتبارها سلوكاً سلبياً بالضرورة، بل كنوع من "الذكاء الاجتماعي". ويمكن القول أن محور الحكاية هو المكر، فقد كادت النساء مكيدة غيّرت مسار أحداث الحكاية نحو مسار غير مستقر وأكثر تشويقاً لما سيحدث ولكنه من الأفعال النميّة التي استنكرها الدين الإسلامي، إذ جاء في قوله تعالى في هذا الصدد "﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [آل عمران ٥٤]"

4- نسق اجتماعي :

وأول ما يشير إلى وجوده هو عدة مظاهر كالصيد في الغابة، وتحضير النساء "الطمينة" وهي حلوى يحضرها الجزائريون في مناسبات اجتماعية متعلقة بالفرح والنجاح، وهي خليط من الدقيق المحمّص وعجين التمور مع مواد أخرى تكملها تكون طرية القوام، ولذلك استطاعت النساء دسّ بيض الثعبان فيها، ومن أجل سهولة بلعها دون الشك في وجود شيء داخلها.

يمثل أيضاً هذا النسق في ما سمي في الحكاية الشعبية بـ "الدبار"، حيث أنه كان في كل مجتمع أو دوار أو قبيلة حكيم يلجؤون إليه عند وقوعهم مشكلة أو ورطة، هذا الحكيم في المجتمع الجزائري يطلق عليه "الدبار" من "الدبارة" والدبارة هي فكرة أو رأي سديد أو حل يعتمد عليه في الأوقات الحرجة للفرد أو الجماعة، ولا يشترط أن يكون عالماً لأنه يختار حسب بعد نظره وحكمته في الأمور الاجتماعية، والله يوتي الحكمة لمن يشاء.

5 - نسق الحيلة والذكاء :

ويمثل هذا الأخير في اتفاق "ودعة" مع ابنها من أجل تبليان الحقيقة لإخوتها واسترجاع الاعتبار لنفسها، كما ظهر في اختيار النساء لأكلة الطمينة دون غيرها من الأكلات وهو اختيار مبني على ذكاء منهن؛ إذ أن الطمينة ذات مذاق حلو بحبّذه الجميع، كما أنها طرية ويسهل بلعها مع اختيار الحجم المناسب لذلك ضف إلى ذلك اللون الداكن الذي يحجب رؤية ما بداخله، كما لا ننسى أنها الحلوى التي يمكن اعدادها بسهولة.

6 - نسق الانتقام :

تجلى هذا النسق في العودة والبحث عن اخوتها وتجليه الضباب عن حقيقة ما جرى لها إثر المكيدة التي نصبت لها، وقد وقع ذلك من خلال القتل، التطليق والهجران للنساء جزاء ما قمن به، فلكل منهن جزاء لما قمن به.

7 - نسق المركز والهامش :

مثل الشر في بداية الحكاية "المركز" لغلبتها في البداية وتحقيقه المآرب بالتخلص من ودعة حيث أنها لم تستطيع تبرير ما حدث لها، إلا أنه بذكاء منها والعمل على كشف الحقيقة بعد تلقي المساعدة من زوجها ثم ابنها جعلها تقلب الموازين لصالحها، وتغيير المصير بخروجها من دائرة التهميش إلى المركز، وبالتالي تحقيق انتصار الخير في نهاية الحكاية، وصارت المركزية للخير الذي مهما طال عليه الزمان أو جار فإنه منتصر لا محالة.

لقد مثّلت شخصية "ودعة" الشخصية المستضعفة مقابل كثرة النساء ومكرهم، فكانت عاجزة أمامهن بداية القصة، وتمثلت كثرتهن المركز وضعفها لوحدها الهامش، حتى صبرت ونالت نصرها، وحققت هدفها لتجعل هالة الضوء تعود إليها من جديد، فصارت هي في المركز وهن في الهامش، إذن تمثّلت الكثرة في كفة المركز بينما القلة في الهامش، حتى تغيرت الأحداث وقلبت كفتي الميزان إلى غلبة القلة وصيرورتها في المركز بينها تحول الكثرة للهامش. أدّى الصدق والكذب أيضا دورا في بيان وجود المركز والهامش فقد كان الكذب يحتل مسرح الأحداث ويحقق الانتصار الحقيقي فحبل الكذب قصير.

8- نسق الهيمنة الذكورية :

مثّل الإخوة الرجال المركزية الذكورية حينما أصدروا حكما مسبقا على أختهم البريئة، دون الوثوق فيها وعمدوا إلى دفنها حيّة خوفا من العار الذي سيلحق بهم، ترى هل كان سيكون الرد نفسه لو كان المذنب ذكرا؟ أم أن للفرجسية الذكورية رأي آخر وهو السلطة للذكر كقناعة مطلقة لا يمكن خدشها وإلا ستكون خروجها عن دائرة الطوع والعرف والقانون والعادات والتقاليد ومساس بالشرف، وعليه تسليم الأنوثة بأنها أمام الجسد الخشن القوي الذي أعطاه أحقية التسلط والتحكم كونه الأقوى¹⁶.

ولذلك أعطى الذكر لنفسه الصلاحية لممارسة الإذلال، التصغير إلى حدّ التحقير، وكذلك العنف سواء الجسدي أو الرمزي على تلك النعومة، وليس عليها إبداء أدنى قوة جسدية أو فكرية ضدها لأنها ستحرّك من رجولته وتزحزحها من عرشها الذي أعطاه إياه المجتمع (الشرقي خاصة)، ولذلك وجب عليه جعل ذلك منافيا لمعايير المجتمع حتى تبقى تعيش تحت رهبة السمعة والشرف وبالتالي تقييدها وحصرها هناك في الهامش، وهذا ما حدث فعلا في القصة التي بينت أنها لم يكن لها حتى الحق في الدفاع عن نفسها أو إثبات براءتها، وأصدروا حكمهم بصفتهم أصحاب السلطة المطلقة لا لشيء إلا لأنهم رجال، وعليهم تنظيف شرفهم عن طريق دفنها حيّة، وهذا عنف واضح ضدها، ثم إن تلك الفعلة بالرغم من قديمة إلا أن البعض متمسكون بها كنوع من الأعراف بحيث تجد هذه العقلية لا تزال بين جنبات بعض الأرياف والقبائل الحبلية الذين تمجّدون الذكورة تسود وجوههم لفتاة¹⁷.

ولذلك تجدهم حتى هذا اليوم يمنعون بناتهم من الالتحاق بالجامعة ظنا منهم أنها ستجلب العار ولذلك اعتبروا "فتاة الجامعة" فتاة منحلة، ومنهم من منعها من الدراسة أصلا.

9 - نسق خرافي :

يُعد الثعبان ذو السبعة رؤوس من الرموز الأسطورية المتكررة في الثقافة الشعبية، ويُجسّد غالبا قوى الشر أو الفوضى الكونية التي تهدد النظام القائم. وتُشير تعددية رؤوسه إلى طبيعته المعقدة والمتجددة، حيث لا يكفي القضاء على رأس واحد لهزيمته، بل ينبغي تدميره بالكامل، وهو ما يجعله رمزا لصراع طويل الأمد بين الخير والشر، أو بين الإنسان والمجهول. في بعض الحكايات الشعبية، يُصوّر هذا الكائن كمخلوق أسطوري يحرس كنزا أو يحتجز فتاة، ما يعكس تمثيلات الرمزية كمصدر للتهديد والاختبار. كما يظهر في العديد من الثقافات الشرقية والغربية على حد سواء، مما يدل على انغراسه العميق في المخيال الجمعي الإنساني، باعتباره تجسيدا للرهبة من القوى الطبيعية، والخوف من "الآخر" الذي لا يُروّض بسهولة.

10- نسق الشرف :

كان في طيات هذه الحكاية أيضا نسق الشرف؛ إذ أن الأمر تعلق بشرف الفتاة وخذش حياتها جورا عن طريق الحيلة التي مكرنها لها زوجات إخوتها بجعلها تبدو حبلى وتظهر كفاعلة للفحش، وهذا ما نهى عنه الدين الإسلامي ووضعه تحت مسمى "قذف المحصنات"، وقد قال الله تعالى في هذا الصدد: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (سورة النور/ الآية 04)

ومن خلال الآية الكريمة يقوم الله عز وجل بحماية الإنسان من الظلم والجور الذي قد يقوم عليه من أخيه الإنسان، كما أنه يضع لمن يظلم في موضوع كهذا حدا لظلمه والذي تمثل في جلده ثمانين جلدة ولا تقبل له شهادة بعدها في أي شيء لأنه أصبح من المفترين، كما قد لقيهم الله تعالى بالفاسقين وهي من أشنع الصفات التي قد يحملها الإنسان، فشرف الإنسان من الكماليات التي لا مساس بها ك (النفس والدين والعرض والعقل والمال) ومن هذا يتجلى نسق آخر تمثل في الطابو .

11- نسق الطابو (الجنس):

إن الحديث عن الشرف يستل بطريقة أو بأخرى موضوع الطابو والذي تمثل في الجنس، فالملاحظ هو التطرق لتيمة محظور النقاش فيها ولا سيما في بيئة محافظة من الناحية الخاصة (الأسرة)، ومن العموم (المجتمع)، فقد تجرأت النسوة على كيد مكيدة تمس بالشرف فكانت جريمة تناقض الجنس بطريقة صريحة من خلال جعلها تبدو حاملا واتهامها بالفعل الشنيع (ممارسة علاقة غير شرعية) وعرضها على اخوتها بذلك الموقف المحرج.

خاتمة:

نخلص في نهاية البحث إلى جملة من النتائج تمثلت في :
تُعدّ الحكاية الشعبية في قالمة وسيلة فعالة لنقل القيم والثقافة المحلية.
تسهم الحكاية الشعبية في ترسيخ الهوية الجماعية وتعزيز الانتماء الثقافي.
تحمّل الحكاية الشعبية أنساقا تجعل من الخطاب مزدوجاً يجمع بين الترفيه والنقد غير المباشر للواقع.

تُعدّ الحكاية الشعبية في منطقة قالمة أداة مهمة للحفاظ على التراث الشفوي للمنطقة، رغم تعرضها للتحويل عبر الزمن.
هناك حاجة ملحة لمزيد من التوثيق والدراسة الأكاديمية لهذا الموروث الثقافي الشعبي.

- قائمة المصادر والمراجع:

- أحمد يوسف عبد الفتاح، لسانيات الخطاب وأنساق ثقافية، دار منشور الاختلاف، بيروت، ط 1، 2010. آرثر -
- أيزا برجر، تر: وفاء إبراهيم و رمضان بسطاويسي، النقد الثقافي –تمهيد مبدئي للمفاهيم الرئيسية، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط 1، 2003.
- بيار بورديو، الهيمنة الذكورية، تر: سلمان فعفراني، المنظمة العربية للترجمة، لبنان، ط 1، 2009.
- سعد علي المرعب جعفر، النقد الأنثوي، ديوان عبلة بنت المهدي، مجلة المركز بابل للدراسات الإنسانية، ع 4،
مج 8، 2018.
- عبد الله إبراهيم، الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان،
ط 1، 2014.
- عبد الله الغدامي، النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي، لبنان، ط 03،
2005.
- مجدي إسحاق، واقع المرأة، قضايا، الحب والزواج، دار المصورات، الخرطوم، ط 1، 2020.
- محمد حسن البرغشي، الثقافة العربية و العولمة –دراسة سوسيولوجية لآراء المثقفين العرب، المؤسسة العربية
للدراسات و النشر، بيروت، لبنان، ط 1، 2007.
- محمد مفتاح، النص من القراءة إلى التنظير، شركة النشر المدارس، الدار البيضاء، المغرب، ط 1، 2000.

هوامش وإحالات المقال

- ¹ - عبد الله الغدامي، النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي، لبنان، ط 03، 2005، ص 83-84.
- ² - آرثر أيزا برجر، تر: وفاء إبراهيم و رمضان بسطاويسي، النقد الثقافي –تمهيد مبدئي للمفاهيم الرئيسية، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة،
ط 1، 2003، ص 30، ص 31.
- ³ - محمد حسن البرغشي، الثقافة العربية و العولمة –دراسة سوسيولوجية لآراء المثقفين العرب، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت، لبنان،
ط 1، 2007، ص 88.
- ⁴ - عبد الله الغدامي، النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية، ص 77.
- ⁵ - المرجع نفسه، ص 84.
- ⁶ - المرجع نفسه، ص 77.
- ⁷ - محمد مفتاح، النص من القراءة إلى التنظير، شركة النشر المدارس، الدار البيضاء، المغرب، ط 1، 2000، ص 49.
- ⁸ - عبد الله الغدامي، النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية، ص 76.
- ⁹ - أحمد يوسف عبد الفتاح، لسانيات الخطاب وأنساق ثقافية، دار منشور الاختلاف، بيروت، ط 1، 2010، ص 151.
- ¹⁰ - عبد الله إبراهيم، الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط 1، 2014، ص 128.
- ¹¹ - نقلا عن: سعد علي المرعب جعفر، النقد الأنثوي، ديوان عبلة بنت المهدي، مجلة المركز بابل للدراسات الإنسانية، ع 4، مج 8، 2018، ص 55.
- ¹² - دليلة قدّاش، ربة بيت، منطقة قالملة.
- ¹³ - مجدي إسحاق، واقع المرأة، قضايا، الحب والزواج، دار المصورات، الخرطوم، ط 1، 2020، ص 284.
- ¹⁴ - المرجع نفسه، ص 284.
- ¹⁵ - الحكاية.
- ¹⁶ - ينظر: بيار بورديو، الهيمنة الذكورية، تر: سلمان فعفراني، المنظمة العربية للترجمة، لبنان، ط 1، 2009، ص 22.
- ¹⁷ - المرجع نفسه، ص 22.